

# البلد الحرام و اتساق الخلق مع الأمر

بقلم : عبد الآخر حماد

مكة بلد الله الأمين الذي أقسم الله به في موضعين من كتابه الكريم ، وفيها الكعبة المشرفة بيت الله الحرام ومهوى أفئدة أهل الإيمان ، ذلك المكان الطاهر الذي ميزه الله تعالى على غيره من بقاع الأرض وأعطاه من الخصائص ما ليس لمكان سواه .

وفي هذه الأوقات الطيبة التي يتوجه فيها الحجيج إلى بيت الله الحرام يطيب لنا الحديث حول هذا المكان الطاهر من حيث كونه مثلاً لاتساق الخلق مع الأمر ونموذجاً للتوافق بين ما سنه الله تعالى في كونه وما أمر به وشرعه للناس ، مصداقاً لقوله تعالى : ( ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ) الأعراف : 54 ، فقد جاء هذا النص الحكيم تعقيباً على ما ذكر قبله من آيات الله تعالى في كونه وما سنه من تعاقب الليل والنهار وكون الشمس والقمر والكواكب مسيرة بأمره تعالى حيث قال عز وجل : ( إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ) ، فالخلق يتضمن كما يقول الشيخ السعدي في تفسيره : (( أحكامه الكونية القدرية ، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية )) ، وما دام الكل من عند الله فلا يمكن أن يكون بينهما تناقض ولا تضاد ، بل لابد أن يكون بينهما من التناسق والارتباط الوثيق ما يزداد معه إيمان أهل الإيمان ويكون حجة على أهل الشرك والكفران ..

1- وإن من أهم ما يتعلق بما نحن بصددده ما أثبتته البحوث العلمية الحديثة من كون مكة هي مركز اليابسة حيث نشر عالم مسلم هو الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله في

سبعينيات القرن الماضي بحثاً أكد فيه توصله إلى أن مكة تقع في وسط الأرض وأنه رسم خريطة دقيقة للكورة الأرضية ليحدد عليها اتجاهات القبلة فتبين له أن مكة تقع في وسط اليابسة، ولاحظ أنه يستطيع أن يرسم دائرة يكون مركزها مكة ومحيطها يدور مع حدود القارات الخارجية . وقد ذكر الدكتور زغلول النجار في بعض مقالاته أن هناك من العلماء الغربيين من أثبت صحة هذه الحقيقة أيضاً .

وتأتي وسطية الكعبة متسقة مع ما هو معلوم من كون الأمة المسلمة هي الأمة الوسط كما قال تعالى : ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ) . (البقرة: 143)

وقد أفاض أهل العلم قديماً وحديثاً في بيان وسطية هذا الدين وبراءته من كل إفراط أو تفريط ، ومن ذلك ما قاله الإمام الطبري رحمه الله : (( وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين ، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه ، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به ، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها )) تفسير الطبري (142/3) .

ويقول الإمام ابن القيم : (( ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين جبلين والهدى بين ضاللتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي فيه مضيع له هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد )) . [مدارج السالكين ( 496/2 )] .

ولما كانت ملة الإسلام هي الملة الوسط عقيدة وشريعة ، فقد ناسب ذلك أن تكون قبلة تلك الأمة في المركز الوسط من الكورة الأرضية .

ولعل في ذلك ما يفسر والله أعلم كون النص القرآني الذي يتحدث عن وسطية هذه الأمة قد جاء في سياق الحديث عن القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة ؛ حيث قال الله تعالى : ( سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها

قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ( [ البقرة 142] ثم قال بعد ذلك مباشرة : ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً... ) ثم نجد الحديث في بقية الآية والآية التي بعدها عن القبلة أيضاً حيث قال تعالى: ( وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبه... ) إلى قوله تعالى: ( قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام.....)إلخ الآيات

والعجيب أن وسطية الكعبة كانت معروفة لدى بعض أهل العلم من قديم ، وقد أشار القرطبي رحمه الله إلى العلاقة بين ذلك وبين وسطية الأمة حيث قال في تفسير أية الوسطية : (( المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً ، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم )) . [ الجامع لأحكام القرآن(2/153) ] .

ومن اللافت للنظر أيضاً أن قوله تعالى ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ) قد جاء في الآية الثالثة والأربعين بعد المئة من سورة البقرة، فإذا علمنا أن عدد آيات سورة البقرة ست وثمانون ومئتان، فإن معنى ذلك أن أية الوسطية قد جاءت في منتصف السورة تأكيداً لمعنى الوسطية والله أعلم .

2- والوسطية من ناحية البناء الصرفي مصدر صناعي من الوسط وهي تعني الخيرية ، قال في القاموس : (( الوسط محرّكة من كل شيء أعدله )) ، وقال في النهاية : (( يقال هو من أوسط قومه أي من خيارهم )) ، ومنه قول الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة عن قريش : ( هم أوسط العرب نسباً وداراً ) . [ أخرجه البخاري ( 6830 ) ] .

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يجيء نوح وأمته ، فيقول الله تعالى: هل بلغت ؟ فيقول نعم أي رب . فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبي . فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته . فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا

شهداء على الناس). والوسط العدل). [ أخرجه البخاري (3339)، (4487)،  
 (7349) والترمذي (2961) وابن ماجه (4284) وأحمد (58/3) ]  
 وقال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (( والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال  
 قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها ، وكان رسول الله وسطاً في قومه ، أي أشرفهم  
 نسباً )) ، ثم استدل رحمه الله بحديث أبي سعيد السابق .  
 وأمة الوسط هي خير الأمم كما قال تعالى : [ كنتم خير أمة أخرجت للناس {  
 (...). [آل عمران : 110]

وإذا كانت هذه الأمة بشرائعها وأحكامها هي خير الأمم فإن قبلتها هي خير بقاع الأرض  
 كما قال النبي صلى الله عليه وسلم مخاطباً مكة . (والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض  
 الله إليّ ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت). [ أخرجه أحمد (305/4) والترمذي  
 (3921) وابن ماجه (3108) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء، وقال  
 الترمذي حسن صحيح، وصححه ابن حبان (1035) والحاكم (8/3)].

وهذا توافق ثانٍ بين الخلق والأمر والله أعلم

3- وتوافق ثالث يتعلق بقضية الأولوية الزمانية فمكة هي مبدأ الشرع منها بدأت دعوة  
 الحق وانتشر نور الإسلام ، وقد ورد في بعض الآثار ما يفيد بأن مكة هي مبدأ الخلق  
 أيضاً وأن الأرض إنما دحيت -أي مدت - من تحت موضع البيت الحرام ، روى ذلك  
 الطبري وغيره عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بأسانيد لا بأس بها ، [تفسير  
 الطبري (265/2)، (20/6)] ، وهذا أحد الوجوه في سبب تسمية مكة بأمة القرى  
 أي لأجل أن خلق الأرض قد بدأ منها ، قال شيخ الإسلام ابن تيميه : (( وقد دل  
 الكتاب والسنة وما روي عن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام مع ما علم بالحس والعقل  
 وكشوفات العارفين أن الخلق والأمر ابتدأ من مكة أم القرى فهي أم الخلق ، وفيها  
 ابتدئت الرسالة المحمدية التي طبق نورها الأرض )) . [مجموع الفتاوى : (43/27) ] .

وفي السنة الصحيحة ما يشير أيضاً إلى كون مكة وما حولها كانت موطناً للإنسان  
 الأول وهو آدم عليه السلام فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة - وأخرج من صلبه كل ذرية ذراها ، فنشرهم بين يديه ، ثم كلمهم قبلاً ، قال : " أأست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (172) أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون " الأعراف : 172-173 ، [ أخرجه أحمد (272/1) والحاكم (352/2) وقال صحيح الإسناد ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ( 25/7 ) وقال رجاله رجال الصحيح وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند ( 151/2 ) .

وقد رأيت بعض المعاصرين يستدل بهذا الحديث على أن أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام كان في يوم عرفة ، وليس في الحديث والله أعلم ما يدل على ذلك ، وإنما فيه بيان المكان الذي أخذ فيه الميثاق ، فنعمان من أسماء عرفة كما هو ظاهر الحديث وفي القاموس المحيط أن نعمان واد وراء عرفة وهو نعمان الأراك .

وإذن فالأولية الزمانية ليست مقتصرة على كون خلق الأرض بدأ من مكة ، بل كانت لمكة وما حولها الأولية في الاستيطان البشري ، ولذلك علل ابن الجوزي توقان النفوس إلى مكة واشتياقها إليها بكونها موطن الإنسان الأول فقد قال بعد أن ذكر حديث أخذ الذرية من ظهر آدم : (( وهذا الحديث يدل على أن ذلك المكان أول وطن ، والنفوس أبداً تنازع إلى الوطن )) . [ تهذيب مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ص:49]

4- وتوافق رابع يتعلق بما أثبتته بعض علماء الغرب من كون مكة هي مركز تلاقي الإشعاعات الكونية التي تخرج من النجوم ومن الأفلاك المحيطة بنا ، ذكر ذلك الدكتور زغلول النجار عن بعض العلماء الأمريكيين ، وذكر أن الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله كان قد توصل لنفس النتيجة من قبل ، فكما أن أفئدة أهل الإيمان تهوي إلى مكة وتنحذب إليها استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ( فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ) [إبراهيم: 37] ، أي تحن وتشتاق ، فكذلك تنحذب الإشعاعات الكونية كلها إلى مكة أيضاً في صورة أخرى من صور الاتساق بين الخلق والأمر .

والملاحظ أيضاً أن إبراهيم عليه السلام لم يقل ( فاجعل أفئدة الناس تموي إليهم ) بل قال : ( فاجعل أفئدة من الناس تموي إليهم )، أي نفوس أهل الإيمان فقط، وقد جاء عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أنه لو قال ( أفئدة الناس ) لازدحمت عليه اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، ولكن قال ( من الناس ) فهم المسلمون .

فالإشعاعات الكونية تنجذب إلى مكة في صورة من صور خضوع الكون كله بلا اختيار لله رب العالمين، ولا يشاركها في ذلك من بني آدم إلا أهل الإيمان كما قال تعالى : ( ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ) [ الحج: 18]

5- وتوافق خامس يتعلق بعبادة الطواف فنحن نعلم أن المسلم حين يطوف بالبيت الحرام فإنه يجعل الكعبة عن يساره ثم يبدأ الطواف، ومعنى ذلك أن دورانه حول الكعبة يكون في عكس حركة عقارب الساعة، فإذا علمنا أن الالكترونات في الذرة تدور حول نواتها في عكس عقارب الساعة، وكذلك تدور كواكب المجموعة الشمسية حول الشمس في عكس عقارب الساعة، فإنه تتجلى لنا صورة أخرى من صور التوافق بين الخلق والأمر .

وكم في خلق الله وشرعه من حكم وأسرار، فسبحان الخلاق العظيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

موقع الرحمة

تحت إشراف الدكتور عبد الآخر حماد